سير الزمان

الرئيس ماساريك

رأيه في الديمقراطية والفاشية

لعلي أدهم

الشؤون الدولية

في سنة ١٩٣٧

جذب ودفع — امتحان القوة — الحرمان في اسبانيا والصين — سقوط هيبة القانون — الفرصة ومؤتمر نيون — روسيا ترتد الى القومية — من محور الى مثلث ضد الشيوعية — تزاور الاقطاب. المانيا والمستعمرات — ايطاليا والحبشة

الرئيس ماساريك

سأبهُ في الديمقراطية والفاشية

لعلي أدهم

في ١٤ سبتمبر من العام الفارط مات توماس ماساريك رئيس جمهورية تشيكوسلوفاكيا السابق فطويت بموته حياة سريّة وختمت سيرة عاطرة وغاب عن ميدان السياسة الاوربية سياسي من اعالي الابطال صانعي التاريخ وبناة الدول . ولعل اكبر عزاء لامته عن فقده انهُ مات بعد ان نضجت سنه وأدى واجبه وأبلغ رسالته على اتم ما يكون اداء الواجب وتبليغ الرسالة وارتقى ذروة المجد الخالد وظفر بالتقدير القمين بمثله والجدير بما تم على يديه

وقد استطاع ماساريك خلال تلك السنوات المليئة بالحوادث العاصفة التي تلت الحرب الكبرى وبين الانقلابات الهادمة والتغيرات الطارئة ان يحتفظ بتشيكوسلوفاكيا واحة مزدهرة ظليلة في وسط صحراوات جرد من الديكتاتوريات وحكومات الغشم والطغيان ولقد كان في سعيه الى تأسيس الجمهورية وتولي رآستها مثلاً من امثلة العزم الصارم والشجاعة الخارقة وقد اثبت في السنوات التي تولى فيها الرآسة وأشرف على مقاليد السلطة انهُ سياسي بعيد النظر رحب الافق نبيل المقصد

وقد ولد ماساريك عام ١٨٥٦ في قرية صغيرة وبدأ حياته مملقاً منقطع النصير وحيداً من الخلان وزاول في صدر حياته بعض المهن الشاقة والحرف الكاسدة ثم عالج التدريس بفضل صبره وقوة احتماله وبعد جهد شاق استطاع ان يحرز اجازة في الفلسفة وقد مكنته سعة المامه بمذاهب الفكر وتضلعه من الفلسفة من أن يصل وهو في سن الثانية والثلاثين الى منصب استاذ الفلسفة في جامعة براج وهناك تجلت مواهبه ونبه شأنه وعظمت مكانته

وأتاح له ذلك فرصة التوفر على البحث والتحرر للكتابة فاخذ يضع غرر التصانيف وينشر روائع البحوث في الادب والنقد والفلسفة والسياسة ويلقي شائق المحاضرات ويضمنها سديد الآراء وناضج الافكار وامتاز بخصلتين بارزتين ميله الشديد الى العدالة الاجتماعية وشدة تأثيره في نفوس تلامذته ومريديه حتى صاروا يتخذونه قدوة لهم ويتأثرون خطواته في طلب المثل العليا ونشدان الكمال. ومهد لهُ ذلك السبيل الى دخول مجلس النواب، وحدثت محاكمة هلسنر اليهودي لاتهامه بقتل فتاة بوهيمية وانتهز ماساريك هذه بحث تلك القضية وتضلعه الى دقائقها ببراءة هلسنر فانبرى للدفاع عنه وصمد لذلك في وجه الهم والاقاويل التي كانت تنهال عليه جزافاً وقد اثبت موقفه

النبيل في هذه المحاكمة انهُ كان يجمع في نفسه بين العاطفة القوية والبصيرة النافذة، وعارض السياسة النمساوية التي كانت ترمي إلى اضعاف شخصية أمته وإدماجها في العنصر الالماني وفي سنة ١٨٩٠ حمل لواء الحركة الوطنية التشيكوسلافية ولمس روح قومه واخذ يعمل على اثبات كيانها وتحقيق وجودها، وثارت الحرب الكبرى فنبت به بلاده وجاب الاقطار حتى انتهى به المطاف الى لندن حيث اختارتهُ كلية الملك ليكون ضمن اساتذتها وهناك تهيأت له الفرصة لتدبير أمر استقلال بلاده وتنظيم حركته وكان يؤيده في ذلك ويشد ازره صديقه بينش، وترادفت عليهِ المتاعب واعترضت طريقه الصعاب فلم يتدارك وهن وتغلب بثاقب عزمه على العقبات المعترضة وقد كان انتصاره انتصار رجل محلق الاحلام بعيد الآمال ولكنهُ أوتي قوة العزيمة على تحقيق احلامه وتصديق آماله

وكان من الطبيعي ان لا تنسى لهُ امته بعد ذلك سابق خدماته وسالف تضحياته وكده في نيل حريتها وتأثيل مكانتها فاصطفتهُ لرئاسة الجمهورية ولم يكن ذلك من حين الامور فقد كان عليهِ أن يمهّد لقومه الطريق الوعر ويقيم لهم الحدود ويرسم لهم الخطط ويبتكر مستحدث التقاليد وكانت هناك اقليات عليهِ أن يحسن السياسة معها ويلتزم القصد ليزيل نفورها ووحشتها ويؤالف بين قلوبها، وكان عليهِ أن يبث حماستهُ في الاعمال الادارية وان يفيض من ضوء عبقريته على التفاصيل اليومية الدارجة ورغم ما يؤخذه عليهِ بعض نقاد سياسته من الاخطاء ووجوه التقصير فان الذي يلقي لمحة شاملة على سياسته لا يخالجهُ شك في أن ماساريك قد اجاد وضع الاساس وأحسن تشييد البناء حتى اصبحت تشيكوسلوفاكيا بفضل سياسته ومبادئه السامية قوة ادبية يلوذ بها طلاب الحرية

وقد نهض بالتعليم نهضة صادقة ورفع مستواه حتى صارت معاهد التشيكوسلافيين الفكرية محلاً للتقدير وسما بالتشريع حتى اصبحت قوانين بلاده تضارع قوانين أرقى الامم وأعرقها حضارة وتمديناً وقد لقن قومه حب الحرية السياسية وعلمهم اذا اقتضى الامر ان يجودوا بارواحهم في الذود عن حياضها

والعمل الذي قام بهِ ماساريك باهر راجح من اية ناحية تواجهه وبأي ميزان تحاول وزنه، وإذا عزونا نجاحه وتوفيقه الى قوة الظروف والملابسات والى ان امبراطورية النمسا العتيقة المتهدمة قد طوعت لهُ الفرصة السانحة وافسحت لهُ مجال العمل ثم جاءت الحرب الكبرى فمكنتهُ من أن يتحين الظروف المؤاتية والى انهُ قد وجد في صديقه بينش خير عضد له، فانهُ لا نزاع بعد ذلك في أن الرجل قد راض قومه على اساليب الحكم الصالح وضرب لهم خير الامثلة وعوّدهم الديمقراطية الصحيحة الحقة، فالانتخابات في تشيكوسلوفاكيا حرة والتعليم هناك

يفسح المجال للاستباق في مضمار النبوغ وخربة الاجتماع مكفولة وحرية ابداء الرأي والنقد مصونة وليس بين من تخرجوا في مدرسة ماساريك من يفكر في الانقلاب على الديمقراطية والتنكر لمبادئها ، ومن أقوى الادلة على اقتداره انهُ استطاع توطيد مبادىء الديمقراطية وتعزيز مكانتها في الظروف الاليمة التي يعانيها هذا العصر المضطرب وفي تلك الليالي الحالي بكل عجيبة

وقد ظلَّ هذا الاستاذ الاديب والسياسي الفيلسوف يأتيه الشريف ويوافيه الاعجاب من مختلف اطراف الارض وهو مع ذلك مؤثر للبساطة في عاداته واخلاقه لا يزهى ولا يتكبر ولا تأخذه نشوة الشهرة ولا تفضلهُ سطوة الحكم وظل كدأبه ولوعاً بالدرس عاكفاً على مطالعة الروايات والتملي من فنون الادب وفي سويعات فراغه واستجمامه يرتاض في الخلوات مشياً على القدم او ممتطياً صهوة جواده ولا ينفض عنهُ الناس ولا يقصيه عنهم الحجاب ولم يمس انهُ نشأ من سواد الشعب وان قوته قائمة على تصديقهم بمثله الاعلى ومشاركتهم لهُ في الايمان به فهو في العصر الحديث خير نموذج للحاكم الفيلسوف الذي تصوره افلاطون

ويرى الاستاذ لاسكي ان السر في نجاح ماساريك يرجع الى شخصيته الجذابة المحببة وأخلاقه المتينة الرضية وجمعه بين العقل المفكر الرزين والعاطفة الحارة الفوارة وتزاوج الرأي بالشجاعة ، ولم يكن ماساريك فظًّا غليظ القلب ينفض من حوله الانصار بل كان اخلاصه التام وتفانيه في خدمة مبادئه وافكاره يدني منهُ قلوب حزبه ويمكنهُ من قيادهم مختارين منقيطين لانهم يستظلون بروحه ويستنيرون بأنافيض آرائه ومنثور حكمه ، ولقد كسب الحرية لمواطنيه ومزجها بنفوسهم واجراها في طبائعهم ولم يلبس شيئاً الاَّ اضاءه بذكائه الشرق ونقاه من الاوشاب بصفاء نفسه ونزاهة اغراضه

ماساريك والفاشية

وأنتقل هنا رأيه في الحكومة الفاشية ودفاعه عن الديمقراطية لأعرض على القارىء مثالاً من تفكيره وسديد نظراته مستمداً في ذلك على احاديثه مع الكاتب المعاصر اميل لودفج أحد نوابغ كتاب التراجم في العصر الحديث وهي أحاديث امينة الرواية صحيحة الاسناد — قال عن الفاشية « ليست الفاشية كتاباً للسياسات العملية والادارة الحكومية وانما هي مذهب من مذاهب الحياة وأسلوب من أساليب تقويمها فهي فلسفة اقرب ما تكون الى الفلسفة الاخلاقية . لقد عنيت بنظرة الفاشية الى الحياة فأوسعتها بحثاً من الوجهة النظرية واقتفيت آثار سياستها ولقد شرح موسوليني المذهب الفاشي في دائرة المعارف الايطالية شرحاً شائقاً وأنا اقره على بعض ما ورد فيه واخالفهُ في بعضه وانما اريد الموازنة بين المبادىء

الديمقراطية والمبادىء الفاشستية ، لقد أعلن موسوليني عداءه للمادية والوضعية واكد روحية نظرته الى الدنيا والحياة دون ان يصف في شيء من التفصيل افكار فلسفته الاساسية ، وقد دارت اكثر احاديثه وكتاباته حول مسألة الدولة والوطن . والفاشية مثل كل نظام سياسي يعنيها ويشغلها تحديد العلاقة بين الفرد والنظام الاجتماعي ، وموسوليني عدو للفردية وهو لا يعرف الفرد الا باعتباره جزءاً متمماً للدولة والدولة في نظره تطور تاريخي وهي الضمير العام والارادة الشاملة ، وانا من الوجهة النفسية ومن الناحية التاريخية ومن الجانب الاخلاقي كذلك لا استطيع التسليم بان الضمير الفردي مستغرق في ضمير عام مفوف في تضاعيفه ولا اصدق بوجود ما يسمونهُ الضمير العام او الارادة العامة فليس هناك سوى ضمائر فردية ومن الوجهة السياسية فانا لا ارى امامنا سوى مجاميع من الافراد وهؤلاء الافراد يمكن ان تكوّن منهم وحدة ويجمعهم نظام مختلف الاشكال والفاشية اسلوب من أساليبه

ولاعتقادي بالفردية لا استطيع ان اقبل فكرة ان الحكومة او الوطن او الشعب يتجسم في افراد قلائل او يجتمع في فرد واحد ، واعرف ان بين علماء الاجتماع واصحاب النظريات السياسية من يؤمنون بوجود ضمير عام وينكرون الضمير الفردي ولكن هذا التصور لا يقوم على أساس علمي وهو مشتق من تبعة الفكرة الارستقراطية في السياسة

والدولة عند الفاشية هي مجاع كل شيء فهي اعرق من الوطن والشعب وهي تكون الوطن والوطن لا يكونها فهي صميم الوجود وروح الروح ومعنى هذا ان ضمير الدولة وهو الوحي الذي يستلهمه جميع الافراد من خاملين وبارزين ويعمل بمقتضاه الفنانون والمفكرون والسياسيون ، فليس عمل الحكومة الفاشية مقصوراً على سن القوانين ووضع الشرائع وادارة دفة السياسة وانما يشمل تنظيم الحياة الروحية ورسم القواعد الاخلاقية والدولة هي السلطة الوحيدة المنفردة المتمادية ولا حدود لنموها لانها غير محدودة وانهُ لما يروق ويعجب ان يسترسل الانسان في بسط تعاريف الفاشية وبيان اغراضها ومنازعها واكتفي ان الاحظ انها من ثمرات الخيال اكثر مما هي من نتاج العقل

والدولة الفاشية لا ترمي لتشكيل صور لوجود الانسان على انماط جديدة فحسب وانما ترمي الى تنقيح محتويات ذلك الوجود بما فيه من رجال واخلاق ومعتقدات ولهذه الغاية تحاول ان يكون لها سلطة تامة تهيمن بها على العقول وتسيطر على الاخلاق بلا معارضة ولا تعقيب ، وفي رأي الفاشية ان عصر الديمقراطية قد انتهى بالحرب الكبرى

ويبدو لي ان الدين والكنيسة قد كان لهما شأن كبير في تكوين عقلية موسوليني وصياغة افكاره وأثرا فيه اكثر مما اثرت النظريات السياسية والآراء التي يتلقاها الانسان في ابان نشأته من

المدرسين الذي يحبهم ومن والديه لها تأثير كبير ، فالروح الدينية الصارمة والقول بتنزيه الكنيسة عن الخطإ وتسويغ سلوكها في مختلف الشؤون لقداستها وارتفاعها عن النقد تصبح تنزيهاً للحكومة والامة ومحيطها بقداسة تحرم النقد وتفرض الطاعة والولاء فرضاً ، وقد اقتبست الفاشية من الكاثوليكية مظاهرها ورموزها ونظامها ، وتتظاهر الفاشية بناصرة الدين المسيحي ولكنها ترمي من وراء ذلك الى غاية سياسية لان المبدأين المسيحيين الهامين وهما مبدأ حب الناس بعضهم لبعض ومبدأ الاخاء العام للنوع الانساني مما يحير الفاشية ويربكها وهما في نظرها اوهام وخيالات سماوية والفاشية تنبذ المثل الاعلى للسلام لان الحياة عندها معركة ابدية ومن ثم تدريبها الشبان وتلقينهم الروح الحربية

ومحاولة الفاشية احياء الروح الرومانية جدير بالتساؤل اذ يشك في قيامه على اساس تاريخي متين لان كبار فلاسفة الرومان واليونان كانوا يبشرون بالمثل الاعلى للانسانية وأنضج العقول في روما وأنبل الشخصيات كانت تقاوم النزعة الحربية والروح الاستعمارية

ولم تستطع الفاشية السائدة ولا النزعة الالمانية المتطرفة ان يزعزعا ايماني بالديمقراطية ، ولتحليل الفاشية يلزم بطبيعة الحال أن تنظر الى منشأها وتطورها وان تكشف عن عواملها المختلفة وقد ذكرت تأثير الكنيسة وفكرة احياء الامبراطورية الرومانية ورغم معارضة موسوليني للمركسية او بسبب ذلك فانّ في تعاليمه قدراً كبيراً من المركسية من امثال ذلك محاولة نقل الجماعات الى الدولة وفكرة إقامة الديكتاتورية

الديمقراطية والدكتاتورية

ولقد سألتني[1] عن الفاشية لتوازن بينها وبين الديمقراطية من ناحية مسألة السلطة والحرية وأنا أقول بان الديمقراطية تعترف بالسلطة ولكنها تحرص على ان تجمع بينها وبين الحرية

ولقد كانت الحكومة الدينية سابقة للديمقراطية وكان هذا النظام المنبثق لنظام السلطة الثيوقراطية يعترف باستمداد السلطة من الله أو من الآلهة ويقول بان القساوسة والحكام ورجال الدين على اختلاف طبقاتهم يستمدون سلطتهم من ذلك المصدر المقدس وكانت الانظمة التي قامت على هذه العقيدة أنظمة دينية أرستقراطية مطلقة ، ولكن الحكومة الديمقراطية ليست من نوع الحكومات المطلقة فهي تسمح بالنقد وترحب بيومن مزاياها الاعتدال وهي ترتكز على

(١) الحديث موجه هنا الى اميل لودفج

الاخلاق لا على الدين وتقوم من الوجهة الفكرية على العلم والفلسفة لا على اللاهوت والفقه الديني

ولقد كانت الحكومات في سالف الزمن تستمين بنظرية السلطة المطلقة لتخرس النقد وتكمّ الافواه ولكن الحكومة التي يباشر اعمالها في العصر الحديث اعضاء يستمدون سلطتهم من الامة لا يمكن ان تدعي العصمة لاعمالها . والحكم القائم على الارادة المطلقة ونظرية الحق المقدس ادى الى قيام الثورات وبسبب آثاره السيئة لا تزال روح الثورة تختلج في النفوس . وكل من يستطيع ان يفكر تفكيراً سياسيًّا منظماً يعترف بنظرية السلطة ويصر على ضرورة الولاء للدولة ولكنه يقف في نفس الوقت الى جانب حقوق الحرية والحرية وسماها حق التجديد والابتكار في كل فرع من فروع الحياة وكل ناحية من نواحيها وبخاصة في العالم السياسي . وهي تستلزم قبل كل شيء عرض الافكار والنظم والسلوك السياسي على بحك النقد ومن ثم فان اول ما تعمل الديمقراطية على ايجاده هي فضيلة التسامح والاعتدال وبذلك تستطيع ان تتغلب على روح الثورة المتمكنة من نفوس القوم في العصر الحديث وتمحو الاسباب التي تدعو الى الصراع والكفاح بين الديمقراطية والنظم الارستقراطية التي اخلقت جدتها وذهبت بضارتها . بل اني اقول الصبر بدلاً من الاعتدال واقصد به الصبر السياسي والصبر لازمة من اللوازم لنجاح الديمقراطية وتوفيقها »

ويعلل ماريك الاخفاق الذي منيت به الديمقراطية الحديثة بقوله « ان الديمقراطية الحديثة لا تزال في دور الحداثة والنظام القديم قد استغرق آلاف السنين ليتم نموه ويكتمل نضجه وقد تأصلت جذوره واستطالت فروعه في حين ان الديمقراطية نشأت مع الثورة الفرنسية فهي في دور النشوء والنمو والمستقبل لها . واذا نظرنا الى خريطة اوربا وجدنا ان اكثر دولها جمهوريات او ملكيات دستورية فلا يزال اغلبها متمسكاً بالديمقراطية ، وليس مما يزري بالديمقراطية ان اصرح بانها لا تزال بعيدة عن الكمال ولا تزال يعتورها النقص وهل كانت حكومات المانيا والنمسا وروسيا المَلَكية كاملة من الوجهة الديمقراطية ؟ وما الذي احدث الحرب الكبرى ؟ ومن الذي فقد الحرب ؟ هل هي الديمقراطية ؟ وما الذي ادى الى الازمة الاقتصادية ؟ هل هي الديمقراطية ؟

اما عن الديكتاتوريات فانتظر وستعلم خاتمتها ، واوربا رغم ذلك كله آخذة في نبذ النظام القديم فليس هناك امة تحاول قبول النظام القديم مهما كان رأيها في الديمقراطية ، واني احرص على ضرورة التفريق بين الديمقراطية والفوضى وان اميز الديمقراطية السلبية من الديمقراطية الايجابية : وقد كانت بعض الامم تستجيب لاسمى مبادىء الديمقراطية في مقاومتها النظام السيئ ولكنها عند ما اسقطت ذلك النظام وحاولت تطبيق الديمقراطية اي القوة السياسية والحكم بارادة الشعب لا بارادة الله شاب تفكيرها وعلقت بأساليبها طرائق التفكير القديم وجراثيم العهد

الباند وليست الديمقراطية مجرد نظام سياسي واسلوب من اساليب الحكم وانما هي فلسفة حياة يحترم بمقتضاها كل مواطن زميله وضوء ومعنى الديمقراطية هو تساوي الحقوق

ومن شأن النظرات السياسية المتطرفة ان لا تصيب الهدف عند أول محاولة وقد كان هذا هو حال الثورة الفرنسية وردود الفعل المختلفة والانتكاسات التي تعقب الثورات ليست بالشيء الحديث . وهي لا تقدح في البرنامج ولا تعيب النظام وانما هي تنال من سياسة ابطاله والموكول اليهم امر تطبيقه ، ولقد كانت أوربا معملاً للتجارب السياسية وستظل كذلك ردحاً من الزمن وهذا واضح الوضوح كله لكل من له ادنى المام بالسياسة ، ونحن نعيش في عصر انتقال كبير والنظام القديم يتحول من جميع نواحيه الى نظام جديد ، وعند ما ينادي موسوليني وجيلز بان انظمتهما هي اصح انواع الديمقراطية ارى في ذلك اعترافاً بفضل الديمقراطية التي اتحدث عنها

واجل ما في الديمقراطية ان اعمالها لا تحاط بالاسرار ولا تنجز في الظلام وانما تبحث في وضح النهار وعلى مسمع من العدو والصديق ، وفي النظام الديمقراطي لكل مواطن الحق في اعطاء صوته ويلزمه ذلك ان يكون على بينة ودراية بسير الاحوال ومن ثم ضرورة الصحافة الحرة الراقية النزيهة والمجالس النيابية والديمقراطية بطبيعة الحال كسائر انواع الحكم في حاجة الى ادارة قديرة وحكومة مستنيرة ورجال تقدم وعرفان لهم قدرة على التوجيه وحسن استعداد للبناء ولهم تجربة صحيحة وخبرة مستفيضة بتصريف الامور ومعالجة الشؤون المختلفة ولنظرة سياسية متسعة المدى . واني اقول لمن يشكون الحرية السياسية وينكرون على الصحافة حريتها ان العلاج الوحيد لذلك هو الاكثار من الحرية وليس معنى الحرية تمهيد السبيل للفوضى والجهل والعجز

علي أدهم

طريق الحق

لما شاهد المسافر الطريق الى الحق
اخذهُ العجب لانهُ رأى الاعشاب تغطيه
فقال : أرى ان احداً لم يسر عليه منذ زمن
طويل . ثم تبين ان كل عشبة سكين حادّة :
فقال لا بدَّ ان يكون هنالك طرق أخرى

عن : سفلين كراين